الفصل الأول
معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوربا

انحصر العالم في العصور القديمة ، الوسطى في قارات ثلاث هى أوربا وآسيا وأفريقيا ، وكانت بلاد العرب ملتقى هذه القارات الثلاث خاصة بعد أن ظهر الإسلام ، وقامت على أكتاف العرب دولة إسلامية كبرى امتدت من المحيط أو كما يسمى بحر الظلمات غربا إلى حدود الصين والهند وإقليم الخليج شرقا ، وبعبارة أخرى فإن الدولة العربية الإسلامية استوعبت في منطقة الشرق الأدنى أجزاء واسعة من شمال أفريقيا وجنوب أوربا ، كما امتدت شرقا لتضم أجزاء واسعة في جنوب آسيا وغربها ووسطها ، هذا فضلا عن بلاد وأقاليم امتد إليها نفوذ العرب تحت مظلة الإسلام في غرب أفريقيا وشرقها ووسطها ، وهذه المناطق تشمل موقعا جغرافيا فريدا في ذلك الجزء المتوسط من العالم القديم حيث تتلاقى طرق المواصلات العالمية بين الشرق والغرب حاملة ثمرات الجهد الإنسانى في الإنتاج الفكرى والأدبى والثقافى والتجارى وغيره .

وقد تلقت أوربا آثار الثقافة العربية الإسلامية في العصور الوسطى في بداية الأمر عن طريق التجارة حيث كانت تنقل البضائع من آسيا إلى أوربا الشرقية والشمالية . ثم شقت الحضارة الإسلامية طريقها إلى غرب أوربا بعد ذلك عن طريق عدة معابر أبرزها ثلاثة هى :

الأندلس ، وصقلية وجنوب إيطاليا ، وبلاد الشام والحروب الصليبية.

وعن طريق هذه المعابر تمكنت أوربا من إحياء ثقافتها مرة ثانية ، وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون ، وقد أكد ذلك "ألكسندر كوريه" Alexandre Koyre أحد أعمدة علماء الغرب المشهورين بقوله "إن العرب كانوا أساتذة الغرب اللاتينى ومثقفيه ، وأنهم لم يكونوا مجرد واسطة بينه

وبين الشرق اليونانى كما شاع القول . فلولا "ابن سينا" ولولا "ابن رشد" لكان ظهور "القديس توما" أمرا مستحيلا ، وأى مصير كان ينتظر المخطوطة الوحيدة من كتاب "إقليدس" لولا وجود العرب الذين ظلوا حتى القرن السادس عشر مرجعا في قرطبة يرحل إليه الأوربيون ؟ ولم يكن هناك من علم إلا العلم الذى في الكتب العربية ، كما أكد ذلك "روجر بيكون" Roger Bacon بقوله إن كل الثقافات الأدبية والعلمية في القرون الوسطى المسيحية كانت موسومة بخاتم الإسلام وعلامته .

ولكى تتضح هذه الصورة سنتعرض للمعابر التى وصلت منها الحضارة العربية إلى أوربا .

أولاً : الأندلس :

فتح العرب الأندلس في عام ٧١١م فكانت بذلك أول بلد يقتطعه العرب من أوربا المسيحية ويضمونه إلى دولة الإسلام ، ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٤٩٢م حكم العرب هذه المنطقة وتركوا بصمات حضارتهم عليها خاصة وأن العرب اختلطوا بأهل شبه جزيرة أيبريا وتعايشوا معهم واختلطت دماء المسلمين بدماء المسيحيين هناك عن طريق المصاهرة والزواج ، ونشروا دينهم ولغتهم وحضارتهم .

ونتيجة لذلك بدأت في الأندلس عملية امتزاج اجتماعي واسع النطاق بين مختلف العناصر ، ونتج عن امتزاج العرب بأهل البلاد الأصليين أن ظهر جيل جديد يعرف باسم "المولدين" ، كما اعتنق عدد من الإسبان الدين الإسلامى فعرفوا "بالمسالمة" ، هذا إلى جانب الطائفة التى احتفظت بديانتها المسيحية وعرفت باسم "المستعربين" لأنهم اختلطوا بالعرب وتأثروا بهم في لغتهم وسلوكهم وعاداتهم وملابسهم ونواحى حياتهم المختلفة ، ثم الأقلية

اليهودية التى كانت تعيش في إسبانيا قبل الفتح العربى والتى كان لها إسهام كبير في نقل العديد من عناصر الثقافة العربية إلى هذه البلاد .

. وقد عاشت هذه العناصر والأجناس المختلفة من عرب ومسالمة ومولدين ومستعربين ويهود جنبا إلى جنب يأخذ كل فريق عن الآخر ، وتؤثر كل جماعة في الجماعة الأخرى وتتأثر بها .

يضاف إلى ذلك أن المستعربين الذى كان تأثرهم باللغة العربية واضحا لم يقتصر دورهم على ترجمة الكتب الدينية بل كانوا وسيلة لنشر الثقافة العربية الإسلامية في شمال إسبانيا المسيحى فقد كانوا من راغبى الهجرة إلى المناطق المسيحية خاصة مملكتى قشتالة وأراجون .

ونتيجة لذلك كانت إسبانيا نقطة التقاء هامة بين الحضارة الإسلامية الوافدة والحضارة اليونانية ، كما كانت مركزا لدائرة تشع على أوربا علوم وآداب وفلسفات وفنون العرب الأصيلة المبتكرة منها ، والممتزجة في بعض مكوناتها بحضارات إنسانية سابقة عليها ، فأشرقت شمسها بطريقة مباشرة وغير مباشرة على غرب أوربا ، ونقلت إليه جزءاً من التراث الذى ورثته عن العرب ، واحتفظت به بشغف في أرضها سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه .

وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس في النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى عندما أصبحت "قرطبة" عاصمة الخلفاء الأمويين من أعظم المدن الثقافية في كل أوربا ، فكانت خزانة قصر الخليفة بها ما يزيد عن الأربعمائة ألف كتاب ، وكان كبار رجالات أوربا يفدون إليها للتزود من علومها . واستمر نور المدنية الإسلامية ساطعا في الأندلس وبخاصة في الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية حتى امتد ليضئ غرب أوربا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، فأقبل الإسبان على استخدام اللغة العربية بل

فضلوها على اللاتينية وأصبحت الأندلس المركز الرئيسى لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، فاتجه كثير من أعلام النهضة الأوربية في القرن الثانى عشر إلى الأندلس للاستزاده من المعارف والعلوم العربيـــة ، وإلـــى جـــانب ازدهار الثقافة والعلم في الأندلس فقد اقترن حكم الأمويين هناك والـــذى زاد عن مائتى وثمانين سنة بأنه أزهى عصور الحضارة العربية فـــي إســـبانيا ، فتقدمت الصناعة تقدما باهرا ، وظهر نظام ممتاز للرى والمنشئات المائيـــة ، ودخلت منتجات زراعية من الشرق مثل الأرز وقصب الســـكر ، والنخيـــل والمشمش والرمان ، كما اشتهرت الأندلس بزراعـــة أنـــواع مختلفـــة مـــن الخضروات والفواكه لدرجة أن كثيرا من أسمائها دخلت في الإســـبانية مثـــل الباذنجان Berenyenas والخرشوف Alcarchofa والزعفـــران Azafran الـــخ. وقامت تجارة رائجة بين قرطبة والعديد من بلدان المسلمين ، ونشطت صناعة الحرب ذلك كله إلى جانب ازدهار العلم والفن ، فعذوبة الأشعار التى اشـــتهر بها العرب انتقلت إلى الأندلس وغدا الشعر هناك معروفا بعباراته الجذلـــة ، كما ارتبط به الموسيقى والغناء . هذا بالإضافة إلى علم الفلك والتاريخ قـــد نظم شعرا ، ولقد أنجبت الأندلس عدداً كبيراً من العلماء والفقـــهاء والأدبـــاء والشعراء والمؤرخين والأطباء وغيرهم ، ممـــن أثـــروا الحركـــة الفكريـــة بمؤلفاتهم ، ووصلوا إلى العقل الأوروبي وأثروا فيه . ومن هـــؤلاء نذكـــر الفقيه "أبو محمد علي بن حزم القرطبى" (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) الذى تظـــهر أصالته واعتزازه بنفسه ووطنه في كتاباته التي سبقت عصره . نذكر منـــها كتاب "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" الذى يتناول فيه صفة الحب ومعانيـه وأسبابه وأعراضه . فنجده يعرض عن ذكر ما كتبه الأقدمون مـــن أشـــعار الغزل وبكاء الأطلال ويسلك طريقاً مستقلاً يبين نضجه وأصالته ، وقد اهتـــم الأوروبيون بهذا الكتاب واعتبروه أول دراسة نفسية تحليلية لعاطفـــة الحـــب والمحبين ، وترجموه إلى لغات عديدة . أما كتابه "الفصل في الملل والأهواء

والنحل" ، فهو عباره عن دراسة نقدية للأديان والمذاهب والفرق الدينية المختلفة ، ومقارنة بعضها بالبعض الآخر ، ويلاحظ أن هذا النوع من الدراسة ، وهو التاريخ المقارن للأديان لم يوجد في أوروبا إلا في القرن الماضى ، وهذا يرينا أصالة هذا الكتاب وإسهامه في الحضارة الإنسانية .

وما يقال عن "ابن حزم" يقال أيضاً عن معاصره وصديقة "أبى مروان ابن حيان القرطبي" (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م) الذى يعتبر أعظم مؤرخ أنجبته إسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط . فلقد ثبت من الأخبار التى أوردها في كتابيه "المقتبس" و"المتين" أنه على دراية واسعة ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بتاريخ الأندلس وتاريخ الممالك الإسبانية المسيحية ، بل وأيضا بعض جوانب من التاريخ الفرنسي .

والواقع أن كتابات "ابن حيان" بالنسبة للباحثين الحديثين هى بمثابة حزانة علمية لهذا التراث الإسباني العربي بمختلف صوره وأشكاله ، ولا يمكن لأى باحث أن يستغنى عن قراءتها والرجوع إليها .

ومن أبناء "قرطبة" أيضا الجراح الشهير "أبو القاسم خلف الزهراوي" (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) الذي ينسب إلى منية الزهراء في ضواحى غرب "قرطبة" وقد اشتهر في أوروبا باسم Abulcasis ويعتبر كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" ، موسوعة طبية مزودة برسوم الآلات الجراحية . ويعتبر "الزهراوى" بهذا العمل أول من جعل الجراحة علماً مستقلاً بذاته ، وقائماً على أساس من العلم بالتشريح . وقد ترجم هذا الكتاب من قديم إلى اللاتينية والعبرية . كما نشر في "حيدر أباد" بالهند كذلك أنجبت "إشبيلية" أسرة "بنى زهر" التى كانت لها شهرة وزعامة ومؤلفات في عالم الطب على عهد المرابطين والموحدين ، حتى صار اسم "ابن زهر" علماً معروفاً في الأوساط العلمية الأوروبية باسم Avenzoar .

أما في ميدان الفلسفة فحسبنا أن نذكر "أبا الوليد محمد بن رشد القرطبى" (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) الذى اشتهر بشروحه لكتب أرسطو وصارت فلسفته تدرس في جامعات أوروبا مثل جامعة "باريس" وجامعة "بادوا" Padova في إيطاليا . وقد بلغ من حب الأوروبيين لشروحه أن تخيلوا أرسطو بعمامة كما يقولون ، وذلك لأن كتاباته امتازت بالعمق في التحليل والقوة في الشرح والأمانة في الترجمة . وقد أطلقوا عليه اسم المعلم الأكبر ويسمونه Averrroes وقد وضعه الشاعر الإيطالي دانتي في ملحمته الشعرية "الكوميديا الإلهية" في منطقة اللمبو Limbo بين الفردوس والجحيم أى ما يقابل الأعراف في الإسلام ، ووضع معه "ابن سينا" و"صلاح الدين" من المشرق ، لأنهم من فضلاء الناس وتقديراً لأعمالهم . ولقد ترجم "ميخائيل سكوت" أعمال "ابن رشد" إلى اللاتينية في مدرسة "طليطلة سنة ١٢٣٠م" فكان أول من أدخل فلسفة "ابن رشد" إلى أوروبا[١] .

لقد كانت بيئة الأندلس ملائمة لتلقى فنون المعرفة إذ اشتهر الأندلسيون بحب اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات ، وأخذت مصانع الورق في طليطلة تزود الأندلس بالأدوات الكتابية ، واستدعى النساخ من جميع أنحاء العالم ، وأصبح تجليد الكتب صناعة زاهرة ، وفي قرطبة وعلى ضفاف الوادى الكبير كان الأوربيون يفدون إليها لمشاهدة القصور الملكية ذات الحدائق والرياض والتى أطلق عليها المنيات والتى كانت أشهرها منية الرصافة التى بناها "عبد الرحمن الداخل" .

وفي إشبيلية بلد الجمال والحدائق الرائعة الغناء التى كانت تربطها شبكة من القنوات المائية التى ما زالت محتفظة بأسمائها العربية في

---

(١)موسوعة العالم الإسلامى ص ٦٢ .

اللغة الإسبانية مثل الساقية Acequia بمعنى الجدول الصغير والناعورة Noria والبقاع Vega كانت وفود الأوربيين تتجه إليها لطلب أدوات الترف والزينة وفرق الموسيقى والغناء .

أما في طليطلة فكانت الطريق الذى انتقل عنه كنوز المعرفة التى وصلت إلى أوروبا من الشرق ، فكما عرف العرب من اليونان بعض علوم الغرب القديمة ، عرف الغرب علوم الشرق عن طريق العرب في العصور الوسطى ، هذه كانت حالة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس حتى القرن الحادى عشر الميلادى .

والجدير بالذكر أن التبادل الحضارى والثقافى بين الحضارتين ، الغربيه والشرقية في الأندلس لم يخضع للجانب السياسى أو العسكرى فلم تتوقف الصلات بينهما رغم النزاع الذى نشب بين الإسبان والمسلمين وانقلاب موازين القوى هناك ، فقد كان للأندلس الإسلامية حتى في عصور ضعفها واضمحلالها نفوذ كبير على إسبانيا المسيحية . ولم يمنع تغيير موازين القوى لصالح الممالك النصرانية في إسبانيا والبرتغال من الاستفادة من ثقافة المسلمين والأندلسيين والاضطلاع بدور حمل عناصرها ونقلها إلى مختلف بلدان أوروبا . فبعد سقوط طليطله في عام ١٠٨٥ على يد الفونسو السادس ملك قشتالة ظلت هذه المدينة محتفظة بصبغتها العربية ، فارداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوربا إلى إسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية وبلغت حركة التبادل العلمية أوج ازدهارها، فنشطت حركة الترجمة عن العربية نشاطًا كبيرا فتم ترجمة الكثير من مؤلفات العرب في مختلف الفنون إلى اللاتينية ، كما ترجم عن العربية العديد من مؤلفات اليونانيين مثل كتب "جالينوس" و"أبقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو" و"اقليدس" وغيرهم (١) .

---

(١) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ص ٥٢

وظلت طليطلة مركزا ثقافيا يجتمع في جنباته علماء المسلمين والمسيحيين واليهود ، وفي بلاط ملوكها المسيحيين بدأت حركة إحياء علمية . فبدأت هذه النهضة في عهد "ألفونسو السادس" واستمرت في عهد "ألفونسو السابع" الذى قام بحماية هؤلاء العلماء ورعايتهم وتشجيعهم على الاستمرار في جهودهم العلمية القائمة وقتذاك على الترجمة عن العربية فترجموا الكثير من الكتب العربية إلى اللغة القشتالية أولا ثم إلى اللغة اللاتينية بعد ذلك .

ولما تولى "ألفونسو العاشر" الملقب بالعالِم العرش الإسبانى دفع هذه الحركة العلمية دفعة قوية إلى الأمام وفي عهده استخدمت اللغة القشتالية (الإسبانية) بدلا من اللاتينية وتم الاستعانة في ذلك بعدد كبير من العلماء من مسلمين ومستعربين ويهود ، وأشرف "ألفونسو العاشر" على كل هؤلاء بنفسه ووضع لهم الخطط التى يسيرون بمقتضاها وبهذا الأسلوب استطاعت هذه المدرسة أن تصب كل تلك الأصول العربية واللاتينية في قالب قشتالى ، وأن تخرج إنتاجا أدبيا وتاريخيا خالدا على مر العصور[١] .

وقد نشطت حركة الترجمة في العديد من مناطق الأندلس منها برشلونة وطرزونة بالإضافة إلى طليطلة التى كان لها شأن كبير في هذه الحركة ، إذ أنشأ Raimune "ريموند" رئيس أساقفة طليطلة مركزا كبيرا للترجمة من العربية في النصف الأول من القرن الثانى عشر ، وفيه تمت ترجمة كثير من المصادر العربية إلى اللاتينية .

وخلال هذه الفترة قام "روبرت الشسترى" بترجمة القرآن الكريم لأول مرة إلى اللاتينية كما ترجم "الخوارزمى" في الرياضيات فضلا عن بعض

---

(١) جمال الشيال ومختار العبادى : معابر انتقال الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا ص ٣٣٦ .

المؤلفات العربية في الفلك والكيمياء وقام "جيرارد" بترجمة أكثر من سبعين مؤلفا تناولت مختلف ألوان المعرفة وبخاصة الرياضيات والطبيعة والكيمياء والطب ٠

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد برز في أوائل القرن الثالث عشر "ألفرد" الإنجليزى وميخائيل سكوت الاسكتلندى ، وهرمان الألمانى وجميعهم عملوا في ترجمة المراجع العربية بإسبانيا ٠ وهكذا كانت الأندلس بمثابة المعبر الأول الذى عبرت عليه الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا ٠

ثانيا : صقلية وجنوب إيطاليا :

ساعد موقع صقلية الجغرافي بين ساحل إيطاليا الجنوبى والساحل التونسى إلى جعلها حلقة اتصال حضارى وسياسى بين أفريقيا وأوروبا ، وإلى اعتبارها معبرا رئيسيا لنقل التراث الفكرى والحضارة الإسلامية إلى أوروبا ليس فقط خلال مدة حكم المسلمين لها والذى زاد عن قرنين ونصف من الزمان (٨٢٧-١٠٩١)، والذى حظيت خلاله خاصة في عصرى الأغالبة والفاطميين بحكم إسلامى مزدهر ، انتشرت خلاله الحضارة الإسلامية في مدنها المختلفة حيث انتشرت المساجد والقصور والحمامات والمستشفيات والأسواق والقلاع ، هذا إلى جانب الصناعات التى أدخلوها كصناعة الورق والحرير والسفن والفسيفساء ذات الرخام الملون ٠ كما استخرجوا المعادن المختلفة كالكبريت والنفط والنوشادر والرصاص والحديد ، وشاركوا في أمور الزراعة والتجارة ونشروا عاداتهم وثقافتهم ولغتهم بين الناس ، وإنما استمرت هذه العلاقة خلال فترة حكم النورمانديين لها (١٠٩١-١١٩٤) ثم في فترة تبعيتها للإمبراطورية الألمانية ، أيضا إذ بلغ التأثير الحضاري الإسلامي ذروته في عهد الإمبراطور فردريك الثالث (١٢٠٨-١٢٥٠) واستمر حتى خروج المسلمين النهائى من صقلية ثم من جنوب إيطاليا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادى وتجمعهم في شمال أفريقيا ٠

ومن يتتبع أخبار الحركة الفكرية في صقلية خلال هذه الفترة يمكنه القول أنها استمدت ثقافتها العربية الأولى ، واقتبست تراثها الفكرى من علماء بلاد المغرب والأندلس ، كما أن هذه الحضارة ازدهرت ازدهارا كبيراً وعاش فيها مسيحيو الغرب مع المسلمين جنبا إلى جنب ، فمن المعروف أن الفتح العربى لصقلية ، والذى كان يضم بجانب الجند العلماء والفقهاء انطلق أساسا من تونس ، وأن قائد الجيش الفاتح لصقلية كان الفقيه "أسد بن الفرات" ، كما أن العديد من فقهاء القيروان قد نزلوا إلى صقلية بعد فتحها للقيام بواجبهم الدينى والعلمى بالجزيرة ٠

وبالإضافة إلى انتقال العلماء المغاربة إلى صقلية فإن بعض أهالى صقلية انتقلوا بأنفسهم للتعلم على أيدى علماء المسلمين في المغرب مما يؤكد أن القيروان لعبت دوراً أساسيا في توجيه الفكر والثقافة في صقلية ٠

يضاف إلى ذلك أن بلاد الأندلس مثلت رافدا ثقافيا مهما لصقلية ، فقد ساهمت في ازدهار الثقافة والعلوم العربية في هذه الجزيرة ونتيجة لذلك بوز علماء صقليون في شتى العلوم والمعارف وقادوا الحركة الثقافية داخل بلادهم ثم نقلوها خارجها ، حيث كان الغرب يفيد من حضارة الإسلام وثقافته ، علما بأن الحضارة الإسلامية لم تنته بانتهاء حكم المسلمين للجزيرة وإنما وجدت من حكم النورمان خير مشجع لها فظلت الثقافة العربية قائمة حيث شمل بلاط الملك روجر الأول (١٠٩٢-١١٠١) العرب هناك بعنايته واهتم بالمحافظة عليهم وعمل على حمايتهم ، وترك لهم قضاتهم وعين منهم الكثيرين في الوظائف الحكومية ، كما عين فرقة منهم في جيشه واحتضن الثقافة العربية وكتب مراسيمه بالعربية إلى جانب اللاتينية ، وصك على إحدى وجهى النقود كتابات بالعربية ، وعلى الوجه الآخر كتابات لاتينية ويونانية ٠ وهكذا سارت صقلية في أيامه مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الإدارى والعسكرى ، وقد سار خلفاء روجر على طريقته فكان بلاط "روجر الثانى"

(١١٠١-١١٥٤م) يجمع بين الثقافتين العربية واليونانية واللاتينية ، كما كان الملك روجر يتكلم ويقرأ العربية ويلبس الملابس الشرقية ، ويساير بلاطه ما كان متبعا في العديد من القصور الإسلامية[١] ، وقد بلغ من تسامح هذا الملك وحبه للعدل والمساواة أنه كان يضرب نقوده باللغات العربية واللاتينية واليونانية . وقد امتلأ بلاطه في مدينة بالرمو Palermo بعدد من شعراء المسلمين وعلمائهم وكان يرجع إلى مستشاريه العرب في العديد من شئونه ، كما استدعى إلى بلاطه العالم الجغرافي الكبير "محمد الإدريسي" (١١٦٤-١١٦٥) وكلفه بعمل خريطة للعالم فلبى الإدريسى طلبه ورسم له خريطة للعالم المعروف في عصره على دائرة فضية مسطحة Planisphere طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف . كذلك ألف له كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" لوصف هذه الخريطة ، ويعرف هذا الكتاب أيضاً بالكتاب الروجاري أو كتاب روجار لأنه هو الذى طلبه منه .

وقد اهتم العلماء والمستشرقون بهذا الكتاب العظيم وعملوا على نشر أجزائه وترجمتها إلى اللغات المختلفة . وحسبنا أن نشير إلى الطبعة العلمية الحديثة التي أخرجها المستشرقون الإيطاليون لهذا الكتاب في سبعة أجزاء .

وهكذا نرى أن الملك روجار الثانى كان على حد قول العالم الإيطالي "ميشيل أماري" ، سلطاناً عربياً يحمل تاجاً كملوك الإفرنج ، وأن تسامحه الدينى أدى إلى امتزاج الثقافات العربية واليونانية واللاتينية ، فصارت صقلية معبراً من المعابر الأساسية التى عن طريقها انتقل تراث الحضارة الإسلامية إلى أوروبا مما كان له أثره في قيام حركة النهضة المعروفة باسم حركة الرنيسانس Renaissance في أواخر العصور الوسطى .

---

(١) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ص ٥٥ .

ثم خلف روجار الثانى ابنه وليم الأول (١١٥٤-١١٦٦م) الذى سار على سياسة أبيه وجده في حماية المسلمين وتشجيع الدراسات العربية الإسلامية ، وكانت علامته مثل علامة أبيه "الحمد لله وشكراً لنعمته" .

ثم خلفه ابنه وليم الثانى (١١٦٦-١١٨٩م) الذى تشبه بملوك المسلمين، وأتقن اللغة العربية قراءة وكتابة ، واختار من رعاياه المسلمين وزراءه وحراسه وجواريه تاركاً لهم حريتهم الدينية ، وكانت علامته "الحمد لله حق حمده" .

وبعد وفاة "وليم الثانى" تولى مقاليد الحكم في صقلية "فردريك الثانى (١١٩٤-١٢٥٠م) ابن "هنرى السادس" امبراطور ألمانيا . وبهذا صار إمبراطوراً على ألمانيا وعلى مملكة الصقليتين التى تشمل بلاد نابولي وجزيرة صقلية . وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة المالكة النورماندية إلى أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية . وقد تفرغ الإمبراطور فردريك للدراسة والاستفادة من الثقافات السائدة في عصره وهى العربية واليونانية واللاتينية. ولا شك أن التراث الحضارى الضخم الذى تركه العرب والنورمان في صقلية وجنوب إيطاليا ، كان له أثر قوي في تكوين شخصية هذا الملك . وقد تجلى ذلك بوضوح في اهتمامه بالثقافة العربية ، وترجمة مآثرها العلمية ، وجنوحه إلى السلم في حل مشاكله السياسية ، وإقامة علاقات ودية مع ملوك مصر والشام من الأيوبيين .

وكان فردريك الثانى شغوفاً بالعلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، وكثيراً ما كانت تعترضه فيها مشكلات علمية ولا يجد من العلماء المحيطين به من يقدم له حلا شافياً لها . فكان يرسلها إلى أصدقائه من ملوك المسلمين لعرضها على علماء بلادهم والإجابة عنها من ذلك مثلاً ، المسائل الرياضية والفلكية التي أرسلها إلى الملك الكامل والتي أجاب عنها العالم الرياضى المصري علم الدين قيصر الأسفونى (نسبة إلى قرية أسفون بالصعيد) فبعث

بها الملك الكامل إليه مع كتاب في علم الفلك على سبيل الهدية ٠ كذلك أرسل فردريك مجموعة من الأسئلة الفلسفية إلى الفيلسوف الصوفي الأندلسى "ابن سبعين" وهي مسائل عن الكون والنفس والعلم الإلهى ٠٠ الخ ، أجاب عنها "ابن سبعين" وقد عرفت باسم "المسائل الصقلية" ٠

ولما ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب عرش مصر ، سار على سياسة الود والصداقة التى اتبعها والده الكامل نحو صقلية وتبادل مع الإمبراطور فردريك الثاني السفارات والهدايا ، نذكر السفارة المصرية التى رأسها الشيخ "سراج الدين الأرموي" الذى أقام مدة في صقلية ، وألف كتاباً في المنطق للإمبراطور فردريك ٠

ثم خلف الإمبراطور فردريك ولده مانفرد Manfred الذي لم يكن أقل عناية من أبيه بالثقافة العربية ولاسيما العلوم الرياضية والطبيعية ٠ وقد عاصر هذا الإمبراطور دولة المماليك الأولى في مصر والشام على عهد السلطان بيبرس ، وتوطدت بينهما أواصر الصداقة والمودة كما كان الحال في عصر الأيوبيين ، فيروى المؤرخ "جمال الدين بن واصل" أن السلطان "بيبرس" اختاره على رأس سفارة إلى الإمبراطور مانفرد سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) وأرسل معه هدية من جملتها عدد من الزراف ، وجماعة من أسرى عين جالوت من التتار بخيولهم وعدتهم ، فأعجب الإمبراطور بالهدية وأحسن إلى الرسل وأكرمهم ٠ ويصف "ابن واصل" مقابلته للإمبراطور بقوله "فأقمت عنده مكرماً بمدينة من مدائن أبوليا (جنوب إيطاليا) يقال لها برلت Barletta ، واجتمعت به فوجدته متميزاً ، محباً للعلوم العقلية ، يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس في الهندسة ٠ وبالقرب من البلد التي كنت نازلاً بها مدينة تسمى لوجارة Lucera أهلها كلهم مسلمون من أصل جزيرة صقلية ، وتقام الجمعة فيها ، ويعلن فيها بشعائر الإسلام ، وهى على هذه الصفة من عهد أبيه وكان قد شرع في بناء دار علم بها ليشغل فيها بجميع أنواع العلوم

النظرية . وأكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة مسلمون ، ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة"[١] .

وهكذا خلف العرب وراءهم في صقلية تراثا ضخما من الحضارة العربية، كما تركوا في الجزيرة في خزانات الكتب عددا كبيرا من المؤلفات في مختلف ألوان العلوم والآداب .

وهكذا كانت صقلية هى المعبر الثانى الذى انتقلت عن طريقه الثقافة العربية الإسلامية إلى أوروبا ، فقد أسهمت صقلية بنصيب مباشر في حركة الترجمة عن العربية حيث كانت في "سالرنو" حركة نشطة لترجمة العلوم العربية والإغريقية إلى اللاتينية ، فقد تم ترجمة الكثير من الكتب العربية خاصة في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، ففي عام ١١٥٠م ترجم أيوجينوس البالرمى Eugenius of Palermo كتاب بطليموس السكندرى في المرئيات العربية ، وفي سنة ١١٦٢ ترجمت عن العربية إلى اللاتينية كتابات أخرى في الفلك والرياضيات .

ولا شك أن قسطنطين الأفريقى كان له دور كبير في حركة الترجمة وكان من أهم أعماله ترجمة كتاب على بن عباس المجوسى المعروف بكامل الصناعة أو الكتاب الملكى وسمى باللاتينية Liber Regius وكانت ترجمة هذا الكتاب فتحا في الطب اللاتينى خاصة وأنه كان أول شرح واضح للعلم الطبى عامة .

وهكذا أفادت أوروبا من الحركة العلمية التى قام بها العلماء في صقلية ، وكان أثرها في النهضة الأوروبية من الأمور التى يصعب تجاهلها .

---

(١) موسوعة العالم الإسلامى ص ٦٩-٧٠ .

ثالثاً : بلاد الشام والحروب الصليبية

كانت بلاد الشام هى منطقة اللقاء الثالث بين الشرق والغرب في العصر الوسيط إبان الحروب الصليبية ، فعلى الرغم من أن هذه الحروب ، التى بدأت في عام ١٠٩٧م وسقط آخر معاقلها على يد السلطان المملوكى "الأشرف خليل قلاوون" في عام ١٢٩١م كانت في مظهرها ترتدى الرداء الدينى فإنه كانت هناك عوامل أخرى سياسية واجتماعية واقتصادية أقوى من العامل الدينى ، فقد أسهمت ظروف تلك الحروب على المزيد من التعارف بين الجانبين ، حيث نشأت صلات حضارية وتجارية بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى استطاع خلالها بعض محاربى الحملات الصليبية أن ينقلوا بعض المعارف عن الزراعة والملاحة والصناعة وغيرها من شرق البحر المتوسط إلى أوربا ، بمعنى أن هذه الحروب ، استخدمت كمعبر انتقلت عليه المدنية الإسلامية إلى أوروبا ، كما برز منها جوانب مثمرة ومفيدة في العلاقات بين العرب والأوربيين فأخذ كل فريق من الآخر بعض سماته الحضارية .

وإذا تتبعنا بعض المؤشرات الحضارية التى تأثر بها الفرنج خلال الحروب الصليبية ، نجد أنها كثيرة ومتنوعة :

فمن الناحية الاجتماعية ، نجد أن الصليبيين ، نظرا لقلة عدد النساء الفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين ، أقبلوا على الزواج من المواطنات المسيحيات من الموارنة والأرمن وبعض الأسيرات المسلمات . وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم بولانى Pulani ، وقد غلب على هؤلاء في طبائعهم وعاداتهم الطابع الشرقى . كذلك أخذ الصليبيون يكيفون حياتهم في الشرق حسب مقتضيات الحال والمناخ ، فارتدوا الملابس الشرقية الفضفاضة واسعة الأكمام ، وأطلقوا لحاهم ، وأكلوا الأطعمة الشرقية ، وسكنوا القصور والبيوت ذات الطراز الشرقي حيث الأحواش أو

الأفنية الداخلية التى تتوسطها النافورات والورود والأزهـــار ، وتحيـــط بـــها الغرف والقاعات ذات المشربيات المحلاة بالزخـــارف المخرمـــة المفرغـــة المنوعة ، كذلك استخدموا في ولائمهم وجفلاتهم الراقصات والمهرجين كمـــا يفعل المسلمون ٠

أما من الناحية الاقتصادية ، فنجد أن الصليبيين ، استفادوا من المشرق الإسلامى استفادة كبيرة لدرجة أن بعض المؤرخين اعتبر الحركة الصليبيـــة حروبا اقتصادية ٠ ففي ميدان الزراعة نقل الصليبيون عن المســـلمين إلـــى أوروبا نباتات وحاصلات وأشجار جديدة لم يعرفوها من قبل وسموها بأسمائها العربية مثل السكر والأرز والليمون والقطن والسمسم ٠٠ الخ ٠

وفي ميدان الصناعة ، عرفوا كثيرا من المصنوعات الإسلامية ونقلوهـا إلى بلادهم مثل المنسوجات الحريرية الموشاة التي اشتهرت بها الشام وتعرف باسم البروكار Brocart والأقمشة القطنية التي كانت تصنع بدمشـــق وســـميت باسمها "الدمشقيات Damask ، وأقمشة الموصل Musilin ومنسوجات العتابيـــة في بغداد Tapis ٠ هذا إلى جانب صناعة الورق والصابون والخزف والزجاج والأصباغ والحلي والعقاقير ٠٠ الخ ٠

أما التجارة ، ، فقد انتعشت بين الشرق والغرب بشكل لم يعـــرف مـــن قبل ٠ فكانت قوافل المسلمين ترد إلى الموانئ الصليبية على ســـاحل الشـــام تحمل سلع الشرق كاللؤلؤ والأحجار الكريمة والعاج والعطور والبهار (Spices) وكان على تجار المسلمين عند دخولهم تلك الموانئ أن يدفعوا ضريبة علـــى بضائعهم وكانوا يعاملون في تلك الموانئ معاملة طيبة ، ولهم فيها خانـــات أو فنادق ينزلون فيها ببضائعهم ودوابهم ٠ ومن الطريف في هذا الصـــدد ، أن حركة التجارة بين الجانبين ظلت مستمرة ولم تتوقف حتى في أوقات الحروب بينهم ، وقد نص على ذلك الرحالة المعاصر ابن جبير عند قوله "واختـــلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع ، وأهـــل الحـــرب

مشتغلون في حربهم ، أما الرعايا والتجار فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلما أو حربا" ٠

وكان من نتائج ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، أن ظهرت المدن التجارية في أنحاء أوروبا ، وهي ظاهرة جديدة أدت إلى اجتذاب الفلاحين إلى المدن وانهيار النظام الإقطاعى ٠٠ كذلك ظهر نظام المصارف في تلك المدن التجارية ، وكثيرا ما عاونت هذه البنوك الطبقات الحاكمة بالقروض المالية وتحالفت معها ضد رجال الإقطاع ٠ وقد نتج عن هذه المعاملات المالية إصدار صرف يعرف بالصك أو الشيك ، وكذلك السفاتج جمع سفتاجة بمعنى الحوالة ، وهي أنظمة مشرقية الأصل ٠

وهكذا شهدت الفترة بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ازدهارا في العلاقات التجارية ين العرب وأوروبا بشكل لم يكن معروفا من قبل ٠

ومن الناحية المعمارية العسكرية ، نلاحظ أن العمارة الإسلامية أضافت إلى التراث الفني العالمي نظماً لم تكن معروفة من قبل مما جعل لها في العصور الإسلامية طابعا مميزا ٠ ومن أمثلة ذلك أشكال العقود ، وأنظمة المساجد والمدارس والقصور والحمامات والأضرحة ٠ كذلك ابتكر المسلمون المداخل ذات المرافق أو المنعطفات المتعددة في المدن والحصون الإسلامية ٠ والغرض من ذلك التحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة الملتوية ٠ ومن أمثلة هذه المداخل عند المسلمين مدينة بغداد التي كانت أبواب أسوارها الخارجية لا تقع في سمت واحد مع أبواب أسوارها الداخلية ، بل مزورة عنها ويفصل بينهما دهاليز ومنعطفات ملتوية لأغراض دفاعية ، ولذا أطلق على بغداد اسم "الزوراء" ٠

وقد طبق هذا الأسلوب الحربي بشكل أفضل في قلعة الجبل (المقطم) بالقاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبى ، في القرن السادس الهجري ، وفي

قلعة حلب في القرن السابع الهجري ، وفي قـــلاع المرابطيـــن والموحديـــن بالمغرب .

ولقد انعكس هذا الأسلوب المعماري العسكرى على الحصون والقـــلاع التى شيدها الصليبيون في الشام أو في أوروبا بعد ذلك مثـــال ذلـــك حصـــن الأكراد Crac de chevalliero في شمال شرق طرابلس الـــذى أعـــاد فرســـان الاسبتارية تشييد قلعته على مثل هذا النظام الرائع الذى ما زالت أثاره باقيـــة إلى اليوم . كذلك ابتكر المسلمون نظام "السقاطة" التى انتقلت إلى الغرب باسم ماتشيكولي Machicoli وهى عبارة عن شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشـب تبرز من الحائط ولها فتحات من أسفل ، وتقام فوق أسوار الحصن ، فيستطيع المدافعون من خلال هذه الفتحات إلقاء المقذوفات أو السائل الحار أو العـــذرة على المهاجمين ، وقد استعار الصليبيون نظام هذه السقاطات وطبقـــوه فـــي قلاعهم في شمال الشام وفي أوروبا . ومن أمثلة ذلك قلعة جابار التى شـيدها رينشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، على نهر السين عقب عودته من الأراضى المقدسة . هذا إلى جانب نقلهم عن العرب فكرة استخدام الحمام الزاجل فـــي إرسال الرسائل العسكرية إلى القوات المحاربة .

أما من ناحية التأثير الثقافي ، فإنه يبدأ منذ أن أخذ كل فريق يتعـــرف على الفريق الآخر ، ويحاول أن يكتب عنه حاضره وماضيه . ولقد أنجـــب عصر الحروب الصليبية نخبة من المؤرخين المعاصرين شرقيين وغربيـــين ، كل يمثل وجهة نظره في تلك الحروب ، فتوفرت من هذه الحقبـــة الصليبيـــة مادة خصبة لم يتوفر مثلها من قبل .

وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع هـــذه المادة الوفيرة في موسوعة علمية باسم "مجموعة مؤرخي الحروب الصليبيـــة Recueil Des Historiens des Croisades (PARIS 1841 – 1906) (١٨٤١-١٩٠٦) وهي تضم ما كتبه المؤرخون المشارقة في خمسة مجلـدات

تحت عنوان : Historiens Orientaux وما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أيضا تحت عنوان : Historiens Occidentaux ومن بين كتاب المسلمين الذين كتبوا عن العلاقات بين المسلمين والصليبيين نذكر الرحالة الأندلسي محمد بن جبير الذى زار الشام في أواخر القرن السادس الهجرى (١٢م) ووصف التعارف المشترك بين المسلمين والمسيحيين في الإمارات الصليبية .

وهناك كانت آخر عاصر ابن جبير وأمدنا بمعلومات هامة عن علاقات المسلمين بالصليبيين بالشام ، وهو اسامة بن منقذ (ت٥٨٣هـ/١١٨٨م) أحد فرسان بني منقذ والذى كانت له مع الصليبيين مشاكل وحروب وصداقات ونوادر أوردها في "كتاب الاعتبار" وتتضمن صورا مقارنة بين عادات المسلمين والفرنجة ، شاهدها أو عاينها بنفسه ، لقد كان أسامة موضع إطراء معاصريه وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي الذى كان معجبا بشجاعته وشعره .

أما المؤرخ الحموي جمال الدين بن واصل (ت٦٩١هـ/١٢٩٧م) فقد أورد في كتابه "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" بعض المعلومات الهامة عن لويس التاسع ملك فرنسا أثناء حملته على مصر ، وعن الإمبراطور منفرد بن فردريك الثاني حينما قابله كسفير للسلطان الظاهر بيبرس .

وهناك مؤرخ حموي آخر اسمه محمد بن على بن نظيف قدم لنا في كتابه "التاريخ المنصورى" صورا لبعض الخطابات المرسلة من الإمبراطور فردريك الثاني إلى أحد الأمراء يروي له فيها بعض أخبار دولته وما جرى فيها من أحداث عقب رجوعه من حملته في فلسطين (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) .

أما المؤرخون الأوروبيون الذين وصفوا حروبهم في المشرق وكتبوا عن المسلمين وبلادهم فهم عديدون أيضا ، نذكر منهم وليم الصوري William

of Tyre (١١٣٠-١١٨٤م) الذى اتصل بالملك عموري الأول وصار مربيا لأولاده ، وظل يتدرج في المناصب حتى صار كبيرا لأساقفة صور • ومن أهم مؤلفاته كتاب في تاريخ الحروب الصليبية منذ قيامها سنة ١٠٩٦م حتى آخر أيامه ١١٨٤م بعنوان "تاريخ الأعمال التى تمت في بلاد ما وراء البحو" Historia reum in partibus transmarinis gestarum ، والكتاب يتضمن معلومات مفيدة عن مصر وأحوالها الداخلية في أواخر العصر الفاطمي ، وكذلك عن تجارتها في البحر الأحمر مع بلاد الهند" •

ولا يفوتنا أخيرا أن نشير إلى المؤرخ الفرنسي دى جوانفيل De Joinville (القرن ٧هـ/١٣م) الذى صحب الملك لويس التاسع في حملته على مصر وأسر معه فيها ، وكتب عنه كتابا بعنوان "القديس لويس" وأورد فيه معلومات هامة عن مصر والمماليك •

وهكذا نرى أن الحروب الصليبية ، وإن كانت قد سفكت فيها دماء غزيرة إلا أنها كانت مهمة لهذا اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب ، إذ انمحت الصورة القديمة التي كانت في مخيلة الصليبيين عن المسلمين ، فلم يعودوا يرونهم جنودا جبناء ، أو قساة غلاظ القلوب ، بل شهدوا من حضارتهم الراقية وشجاعتهم في القتال وورعهم في الصلاة وسماحتهم في معاملة أهل الأديان الأخرى ، ما أطلق ألسنتهم بالإعجاب والتقدير ، وقد صدق المؤرخ الإنجليزى هرنشو Hearnshaw حينما عبر عن هذا الإعجاب بقوله : خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة عندما رأوا المسلمين على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما" •

وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامي ، فقد انعكست العلاقات الثقافية والتجارية بين المسلمين وأوروبا ، على التواصل الحضاري بين الحضارتين الإسلامية والغربية ، إذ كانت القسطنطينية نقطة الالتقاء والمعبر لذاك

التواصل والتفاعل ، فحين كان المسلمون يواصلون ضغطهم على القسطنطينية باعتبارها مفتاح الطريق إلى أوروبا الشرقية ، هجر قسم من علماء بيزنطة ، المدينة مزودين بكتبهم الكلاسيكية وبحصيلتهم الثقافية نتيجة الاتصالات الثقافية مع العالم الإسلامي ، وخاصة مع الأندلس وبلاد الشام وانساحوا في أوروبا ، وعلى الأخص منطقة البحر المتوسط ، فأسهموا في التعجيل بالنهضة الأوربية[١] .

وهكذا كانت الحروب الصليبية ميدانا للكسب الحضارى ففيه بدأت محاولات الغرب المنظمة للاقتباس من حضارة العرب وكانت كفة العرب في هذه العلاقات هى الراجحة فقد كانوا يملكون من مقومات الحضارة المادية والعقلية ما يستطيعون أن يقدموا منه لأوروبا ، بينما لم تكن أوروبا حتى القرن السادس عشر تملك من المقومات التى تمكنها من أن تضيفه لتراث العرب . لهذا أخذ الأوروبيون من العرب أكثر مما أعطوا ، فاقتبسوا الكثير من علوم العرب وفلسفتهم وعمارتهم وفنونهم العسكرية وصناعتهم وتجارتهم وحياتهم الاجتماعية وتأثرت لغاتهم وآدابهم ومجتمعاتهم إلى حد كبير باللغة العربية والآداب العربية والحياة العربية ، يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا يملكون مفاتيح التجارة التى يحتاجها الأوروبيون مثل التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الشرق المعروفة .

وقد حرص العرب على استمرار علاقتهم التجارية مع أوروبا نظرا لأنهم كانوا يحصلون على أرباح كثيرة منها هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا لا يجدون حرجا من الاتصال بهذه الشعوب الأوروبية فقد ملأهم النصر في الحروب الصليبية المتأخرة ثقة في قوتهم ، واعتدادا برجحان تفوقهم ،

---

(١)موسوعة العالم الإسلامى ص ٧٣-٧٥ .

فقد استطاعوا إخراج الصليبيين من الشرق ، وهاهم يرون سلاطين المماليك ينتزعون قبرص ، والأتراك العثمانيون أصبحوا قوة إسلامية ذات بأس ، والعرب والمسلمون لم يثقوا في قوتهم وكفايتهم لمواجهة أوروبا فحسب وإنما وثقوا في تفوق حضارتهم بعد أن شهدوا نوع الحياة التى يحياها أبناء الغرب في ذلك الوقت في العصور الوسطى ، فقد كان الأوروبيون أقل حظا من العرب في العلم والثقافة والاقتصاد والسياسة وظلت الأمور على ذلك سنين حتى مال الميزان تجاه أوروبا ورجحت كفتهم في ميزان الحضارة والقوة(١) .

وعلى الرغم من كل ذلك وبالرغم من أن الحروب الصليبية كانت لها أثار سياسية وعسكرية واجتماعية ، كما أنها كانت إحدى مواطن الاتصال بين الحضارتين الإسلامية والغربية فإنها لم تكن ذات تأثير كبير مثل الأندلس وصقلية خاصة في النواحى الثقافة والعملية . ويرجع ذلك إلى أن معظم الأوروبين الذين شاركوا في الحملات الصليبية كانوا قليلى الحظ من الثقافة ، وليس لديهم قدر كاف من الحضارة تسمح لهم باستيعاب العلوم العربية ولم يظهر بينهم عالم بالمعنى الحقيقي سوى "وليم الصورى" الذى يعد من أكبر مؤرخى القرون الوسطى .

يضاف إلى ذلك أن الصليبيين لم ينعموا خلال تواجدهم بالشرق بفترة من الهدوء اللازم حتى يتمكنوا من البحث والدراسة والتعمق في العلم .

رابعا : حركة الترجمة :

وبالإضافة إلى هذه المعابر الثلاثة ، كانت توجد خطة منظمة لترجمة معارف المسلمين ، ونقلها إلى اللاتينية في العصور الوسطى ، فانصرف الأوروبيون لدراسة علوم المسلمين بحماس بالغ مما ترك أثره الواضح

---

(١)أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ص ١٧-١٨ .

في الفكر الأوروبى • فبعد أن ترجم العرب تراث العالم القديم في العلم والفن والأدب والرياضة والفلسفة ، وكل ما وقع تحت أيديهم من معلومات خلفتها الحضارات السابقة ترجموا كتبا في الكيمياء عن مصر القديمة ، وترجموا عن اليونان كتب الطب والرياضيات والفلك والجغرافيا والفلسفة والأدب والموسيقى ، وترجموا عن الفرس كتب الأدب والشعر والتاريخ والأخبار وأحكام النجوم ، وترجموا عن الهنود كتب الطب والفلك والرياضيات والتاريخ والأدب والموسيقى ، وترجموا عن الأنباط كتاب الفلاحة النبطية وبعض كتب السحر والأصنام وغير ذلك • وبذلك اكتمل لديهم تراث الفكر الإنسانى في مجمله ، والحق أن شعوبا عديدة في منطقة شرق البحر المتوسط كان لها اليد الطولى في إرساء حضارة الإنسان فقد تناوبت العمل والابتكار على مسرح التاريخ • فعندما أصبحت الحضارتان المصرية والبابلية في حاجة إلى دفعة جديدة وجدتاها في الحضارة اليونانية ، وعندما ذبلت الحضارة اليونانية وكادت تطمس حضارتهم وجدت الحضارة في العرب تلك القوة الدافعة التى حملت المشعل الذى كاد ينطفئ ، فأضاءوه من جديد ثم نقلوه بدورهم إلى أوروبا[1] • فمن الثابت أن النهضة الكبيرة التى شهدتها أوروبا منذ القرن الثانى عشر والتى كانت أهم بواكير عصر النهضة ارتبطت إلى حد كبير بالتراثين اليونانى والإسلامى عن طريق حركة ترجمة واسعة عن العربية واليونانية .

لقد عرف الغرب العلوم العربية عن طريق الترجمات في العصور الوسطى ، فنلاحظ في القرن الحادى عشر أن قسطنطين القرطاجنى" قضى ثلاثين عاما متنقلا في ربوع الشرق وشمال أفريقيا بهدف دراسة علوم الطب

---

(١) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمى ص ٤٨٦-٤٨٧ •

العربى ، ثم واصل بعد ذلك في سالرنو ليدرس ما قام بجمعه ، وأخيرا استقر بأحد الأديرة ليترجم المؤلفات العربية إلى اللاتينية ٠

كذلك درس " أبلارد" الإنجليزى أثناء رحلاته إلى إسبانيا والشرق المؤلفات الرياضية والفلكية لدى العرب وترجمها إلى اللاتينية ٠

وأسس أسقف طليطلة مدرسة للترجمة لنقل كتب فلاسفة العرب القدماء إلى اللاتينية وهكذا تلقت أوروبا علوم المسلمين ودرستها واستفادت مما فيها ، وأضافت إليها كذلك وعلى أى حال فإن النهضة الأوربية لم تكن من صنع حضارة واحدة ، خاصة وأن الأفكار العظيمة التى تحدث تحركات كبرى بين البشر تكون دائما نتيجة لجهود جيل أو أجيال من الرجال ، والجيل كله بل الأجيال المتوالية كلها هى التى تصنع التغيير العظيم الحاسم ، فحركة التجديد الغربى أو التنوير لم تكن عمل بلد واحد أو منطقة بعينها بل هى ثمرة عمل جماعى مشترك أنجز سلسلة ضخمة من المنجزات تعاون فيها أبناء أجيال عديدة كان منهم العرب الذين بذلوا جهودهم بعد أن استفادوا من غيرهم من الحضارات الأخرى لدرجة أنهم أصبحوا بمثابة المجموعة الحضارية الأم التى عم إشعاعها جميع أرجاء المعمورة ، وتهيأت أسباب التقدم الحضارى لبقية أجزاء العالم الأخرى ٠

• •